

الوضع والاستعمال في النظرية الخليلية الحديثة Creation and usage in the new khalilien theory

*بوتمجت دعاء

d.boutemedjet@univ-eltarf.dz، جامعة الشاذلي بن جديد، (الجزائر)،

د. فروم هشام

ferroum-hicham@univ-eltarf.dz، (الجزائر)، جامعة الشاذلي بن جديد،

تاريخ النشر: 2024/12/27

تاريخ القبول: 2024/ 12/18

تاريخ الاستلام: 2024/ 02/ 05

ملخص: إنّ ثنائية الوضع والاستعمال العربية موضوع درسه العديد من الباحثين منذ سنين طويلة مضت؛ ومع ذلك فإنه لا يزال قابلاً للتأويل والتجديد. في ظلّ ما يستتبعه عبد الرحمان الحاج صالح بظواهر الاستعمال، سنحاول في هذه الورقة البحثية تتبع ما قدّمة الأستاذ ومفكّرو العربية القدامى من مقولات متعلّقة بدراسة اللغة وضعا واستعمالا في إطار النظرية الخليلية الحديثة وفق منهج وصفي تداولي يؤكد أنّ النحو العربي ليس مجرد قوانين معيارية مؤطرة للغة فحسب بل هو علم مبني على مركّزات جوهرية تحدّد معالم الاستعمال اللغوي، وأنّ دراستهم للثنائية كانت تتوخى التدرج المنهجي في عرض القضايا المتعلقة بوضعية اللغة واستعمالها، ونأمل أن نكون قد قدّمنا للأستاذ جزءا من حقّه في إثباته لأصالة النحو العربي من خلال نظريته ومؤلفه الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية

كلمات مفتاحية: النظرية الخليلية، الوضع، الاستعمال، الاستقامة، الكلام.

Abstract: The duality of creation and usage is a very important topic that many reaserchers have studied for many yrears. However, it is still a subject of innovation, In this paper, we will try to reveal what the professor and ancient Arabic presented regarding to the statements related to the language of modern khalilien theory.we aim to approach that idea with a descriptive pragmatic appraoch where we affirm that Qrabic gramma is not just standard controls and laws framing the language, but rather it is a science built on fundamental foundations that determine the features of linguistic use, and the study of dualism aimed for asystematic progression in presenting issues related to the creation of the terms in language and its use.

Keywords: khalilien theory, creation and usage, integrity, speech.

*المؤلف المرسل: بوتمجت دعاء، الإيميل: d.boutemedjet@univ-eltarf.dz

1. مقدمة :

ما فتئت كلّ أمة تسعى إلى إحياء تراثها اللغوي القديم وإثبات أصالته. الأمة العربية أمة لها تراث لغوي متميّز بدقّة علومه وعلميّه منهجه، وشموليّة طرحه، نظرا للحمولة الثقافيّة الموسوعيّة للرّيعيل الأول من علماء العربية وفي هذا المقام أنجزت إنجازا عظيما مجسّدا في المدوّنة اللّغويّة العظيمة، منطلقها كان " دراسة اللّغة للحفاظ على القرآن الكريم.

وفي هذا تأكيد على التفاتة العرب وفطنتهم لما يسمّى بدراسة اللّغة (كبنية وخطاب)، إذ أولت العرب عناية كبيرة بالكلام لأجل فهم المقاصد الشّرعيّة للقرآن. وهذا ما نحن بصدد دراسته وإثباته من خلال رؤية عبد الرحمان الحاج صالح لتراثنا

اللغوي وثنائية الوضع والاستعمال؛ والتي خصص لها دراسة معمقة وتحليلاً علمياً في كتابه الموسوم (الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية).

إذ سعى من خلال دراسة تحليلية نقدية صارمة تتحرى الدقة والموضوعية (بعث الجديد عبر إحياء المكتسب)؛ فعكف سنين طويلة على دراسة التراث الأصيل من خلال البحث والتنقيب لتتوج لنا هذه السنتون بنظرية لسانية عربية " النظرية الخليلية الحديثة" والتي حاول من خلالها إثبات أصالة النحو العربي وصحة مقولاته وكذا إثبات التفاتة العرب وفطنتهم لوضعية اللغة واستعمالها. وفي هذا السياق يمكننا طرح الإشكالية المركزية التي توطر هذه الورقة البحثية كالآتي:

كيف تعامل العرب قديماً مع اللغة وضعاً واستعمالاً؟ ما المنطلق الذي اعتمده الحاج صالح لإثبات هذا الطرح من خلال نظريته؟، وهل استطاع بيان طبيعة هذه الثنائية في الساحة اللسانية العربية؟

يمكن القول أن الأستاذ قد نجح إلى حد بعيد في إثبات أصالة النحو العربي وتجريده من الادعاء الزائف حول تأثره من خلال تقديم مفاهيم علمية لنظريته عمادها ما قامت عليه النظرية العربية القديمة.

الهدف الأسمى الذي حاولنا رسمه هو: تبيان قدرته على التأصيل للفكر العربي من خلال دراسته لمقولات القدامى لثنائية الوضع والاستعمال والتأكيد على أنهم قد تفتنوا لأهميتها والإشارة إلى أنه نجح في الرد على الادعاء الكاذب الذي لا مبرر له حول تأثر النحو العربي بالمنطق الأرسطي.

2. النظرية الخليلية الحديثة

1.2 الأصول والمرجعيات:

تماهى اللسانيون العرب فيما قُدم من دراسات غربية، وهذا الانبهار كان نتاجه التقليل من قيمة التراث اللغوي العربي؛ إذ صار اللساني العربي يتبنى كل ما ينتجه الغرب دون تمحيص أو غريبة لاعتقاده بصحة نظرياتهم المطلقة، فحاول تطبيق هذه النظريات على العربية، وهذا الأمر قد خلق لنا نظريات مشوهة يعوزها الدقة ومراعاة خصوصيات العربية، ذلك أن ما وفد إلينا من نظريات روعي في بنائه قواعد لغات تختلف عن لغتنا مما أدى إلى تعسف كبير في حقها.

حتى جاء من أعطى للعربية حقها؛ إذ قُدم لنا نظرية عربية بحق وأرسي دعائمها ومنهجها وفق أصول ومنابع تراثية

أصيلة، ودرسته هذه تنم عن الشخصية الموسوعية التي كان يمتاز بها، حتى يقدم ما قدمه، وفق ما يتطلبه العصر حفاظاً على خصوصية التراث وأصالته عبر تأكيده على أن التراث لا يفسر إلا من خلال ما قام عليه من مقولات ونظريات.

نظريته التي قامت على أسس معرفية تتحرى التميز والدقة، برهان على يقظته وحسنه النقدي، وهذا كله في سبيل إثبات

أصالة التراث من خلال العودة إليه واستثماره وفق ما يتوافق ومتطلبات العصر؛ في هذا المقام يستحضرني قول سعيد يقطين " مهما حاولنا قطع الصلة بالتراث وإعلان موته، إلا أنه سيبقى متصلاً بنا نمتد منه ونعود إليه، والإنسان لا يستطيع إنكار أصله؛

فمن وجهه رصاصات إلى ماضيه، فالمستقبل سيوجه إليه مدافعه." ¹

لذا رأى الأستاذ أنّه لا بدّ من توطيد العلاقة مع التراث بتمثله، وإعادة قراءة نصوصه وفق رؤية جديدة تحافظ على كنهه؛ لا تقتصر على شرح المعاني وتوضيح الغايات بقدر ما ترمي إلى تفكيكه وإعادة تركيبه وتأويله، لتكون القراءة منتجة فيها كميّة إبداع تعطي للتراث حقّه؛ ذلك أنّ القراءة التقديّة الواعيّة أساسها التّقصيّ والتّمحيص والدّراية الشّاملة للعمل المطلوب دراسته.

فهي لا تنطلق من فراغ، بل هي نتيجة أسئلة تثار وأجوبة تقدّم، وهذا لا يكون إلّا إذا تحاورنا مع تراثنا وتعمّقنا في مقولاته محاولين فهم مقاصده "كما كان شأن أسلافنا مع حضارات عصرهم والحضارات السابقة"².

فمن خلال الحوار بإمكاننا ردم الهوة بين ماضينا وحاضرنا، وقد كان حاج صالح النموذج الأمثل في البحث والتّنقيب لاكتشاف التراث وسبر أغواره، إذ غدّ العلامة الدّالة على وجود لسانيّات عربيّة في الدراسات اللّغويّة، والذي استطاع التّفريق بين التراث والحداثة، إذ أنّه نقّب في متونه اللّغويّة العلميّة، ولا مس أيضا المسائل التي لها علاقة بالدّرس اللّساني الحديث، واطّلع على أحدث منجزات الغرب، وعلى هذه الرّؤية استطاع خلق نظريّة جديدة من رحم النّظرية اللّغويّة القديمة.

هذه النّظرية تمثّل فقرة نوعيّة في الدّراسات اللّغويّة الحديثة، من حيث صرامتها المنهجية أو من حيث إبستمولوجيّة طرحها ووجاهة مقولاتها.³ الأستاذ لا يطمئنّ للجاهز ويرى أنّه من الحداثة والمغالاة الانبهار بالمنجز الغربي، في ظلّ ما نملكه من تراث لغويّ متين، فنجدّه يراجع القلسم ويعيد قراءته، وفي الآن نفسه يتقرّب الحديث.

والباحث الكفاء هو من لا يغفل عن ماضيه لكن لا يبقى حبيس التقليد، بل هو من يحاول رسم صورة جديدة لتراثه وجعله الأرضيّة التي يمضي من خلالها إلى بناء الجديد ومواكبته.

"وهذا كلّه في خضمّ التّأصيل للسانيّات عربيّة بحق وفق رؤية منهجيّة واضحة تجعل من الفعل القرائي فعلا مستمرّا، يبدأ من الحاضر فالماضي والتّراث ثمّ يرتدّ إلى الحاضر مرّة أخرى في حركة لا تهدأ ولا يقرّ لها قرار"⁴.

2.2 مفاهيم النّظرية الخليلية الحديثة:

قام الأستاذ بمشاريع وأعمال قيّمة تصبّ في المجال اللّساني، تطمح إلى رقي الدّرس اللّساني العربي، وجعله متوائما ومتطلّبات العصر؛ وزاده المعرفي مكّنه من قراءة فكريّة إبداعية بحكم تمكّنه من الأصول والمنابع المعرفيّة التي قام عليها، لذا فالبحث في جهوده فضفاض، إذ بنى دراساته على مقولات يفوق عمرها آلاف القرون.

وقد ركّزنا على النّظرية الخليلية باعتبارها رائدة في الأوساط اللّسانية ولا تقلّ شأنًا عن النّظريّات الغربيّة، من خلالها أشاد الأستاذ بما قدّمه القدامى فتراه يقول: "نظريّات النّحاة العرب الأوّلين تكتسي أهميّة كبيرة؛ إذ يمكن أن تستغلّ مفاهيمها في الميدان التّطبيقي كالعلاج الآلي وتركيب الكلام الاصطناعي..."⁵

إذ كان على دراية شاملة لما قدّمه، وأسلوبه كان نقديّا معتمدا فيه فعل القراءة التّقويّة؛ قوله: "وقد تعرّضنا لتقويم النّظرية اللّغويّة العربيّة، لنرى من خلالها أن الطّريقة الصّحيحة في تأصيل هذه النّظرية؛ أساسها الوصف المنهجي لمبادئها

ومقابلتها مع نظيرتها الغربية.⁶ والمقصود من قوله "تقوم؛ إعادة إحيائها ورسم المسار الذي ولا بد أن تسير عليه وإعطائها القيمة التي تستحقها".

فالنظرية الخليلية عمادها وعي فكري وبعد إبستمولوجي وطابع نقدي للتراث من أجل تأصيله في إطار حدثي يتسم بالجدّة والتجديد نظرياً وإجرائياً، ونسبتها للخليل دليل على موسوعيته وأثره الكبير في إرساء مقولات التراث اللغوي العربي يقول الأستاذ منبهاً "أما تسميتها فقد نسبناها للخليل كونه العماد فيها؛ إلا أنه أخذ عن شيوخه وكان لتلاميذه ومعاصريه دور في إثرائها: سيبويه، الرضي الاسترادي.⁷

وهذا دليل على ثقافة الأستاذ وتطلّعه الدقيق على القديم والتهامه التهاماً استطاع من خلاله استيعاب التراث وتمثله في نظرية جديدة، "سعت إلى إحياء علم الخليل وتوضيح كيفية التعامل مع معطيات العربية وفق مقتضياتها وما تفرضه عبقريتها، بقراءة منصفة بعيدة عن أي تعصب أو أحكام مسبقة"⁸ فنجدته يلحّ على ضرورة العودة إلى التراث العربي ونفض الغبار عنه وإحيائه والنظر والتقصّي فيما تركه عباقرة اللغة.

والهدف الصريح من هذا كلّ الرجوع إلى التراث وإعادة بعثه وإكمال ما بدأه الخليل واللغويون القدامى والغاية الأولى من دراساته هي وضع الرؤية الاستشراعية للغة العربية من أجل مستقبل علمي عملي عالمي.

وبناء على هذا تمكّن من وضع نقطة البداية في سبيل وضع لسانيات عربية - بحق - لها مرجعياتها ودواعيها تقوم على إبستمولوجية معرفية تكسبها شرعية الوجود مبنية على مبدأ التراكم، شاملة في طرحها دقيقة في موضوعها، في إطار ما قدّمه من دراسات تفرّد بها في وسط الساحة اللسانية، فعّد خليل عصرنا.

إذ أنّ نظريته نظرية ثانية تمّ عرضها أول مرة سنة 1979؛ حاول من خلالها الأستاذ "منذ ما يقارب الثلاثين سنة أن يحلّل ما وصل إليه التراث فيما يخصّ ميدان اللغة، ولاسيما التركة اللغوية التي قدّمت بعد مساءلات لغوية تطلّبت الإجابة عنها والتحقّق من صحتها قرون طويلة ولا ننسى نظرة الأستاذ الواعية لما توصّلت إليه اللسانيات الغربية"⁹. وهذا العمل لا يقوم به إلا عالم.

أهمّ أصولها تتحقّق في: "السماع والمنطق الرياضي والخطاب الجامع بين الوضع والاستعمال عند العرب، وهذا هو الذي يحتاج إلى البيان وكشف النقاب عنه"¹⁰.

النظرية تستثمر رؤية لسانية علمية عملية معاصرة، بمثابة قراءة عميقة فريدة من نوعها لم تكن منحازة للتراث ولا منبهرة بالدراسات الغربية، إذ انطلق في وضعها وعرضها وتفسيرها من مقولة "بعث الجديد عبر إحياء المكتسب" والقصد خلق لسانيات عربية من رحم النظرية العربية القديمة من خلال مبادئ قيمة وضعها الأستاذ لإثبات أصالة النحو العربي ونقض ورفض عكس هذا.

فالأستاذ كان غيورا على التراث فقدّم لجميع اللّغويين النظرية الخليلية كدليل على صحّة وأصالة النحو العربي، وردّ على من يقول بغير ذلك. فنجد دراسته هذه لا تميل إلى التّعصّب والانحياز بقدر ما تميل إلى الحياد والموضوعيّة. حاول ربط التراث اللّغوي العربي بما ظهر من نظريّات لسانيّة غربيّة ليس من أجل عقد مقارنة أساسها الأسبقية والتّعصّب، ولا من أجل طمس التراث وكنهه في ثنايا النظريّات الغربيّة، " لا حبا في القدم ولا محافظة من أجل المحافظة"¹¹ إنّما محاولة منه لتأصيل نظريّة لغويّة عربيّة محضة أساسها المزاجية أو التوفيق إلى حدّ ما بين التراث والحداثة وفق ما تقتضيه قضية الأصالة والمعاصرة، ووفق ما يملّيه الإبداع الفكري المنهجي.

ولعلّها اعتبرت إحدى المحطّات التي بني عليها صرح اللسانيّات العربيّة؛ قائلا " وقد أطلنا النظر في كتاب سيبويه، فتبيّن أنّ مفاهيمه نظريّة دقيقة لا مثيل لها، وقراءتنا عمادها النظر فيما تركه الأوّلون وما فهمه المتأخرون وما هو موجود عند الغرب."¹²

ونحن بدورنا إذا أطلنا النظر وأمعنا في كنه التراث سيتجلّى لنا بوضوح تامّ منهجيّة العرب في دراستهم للغة والموضوعيّة التامة في استنباط قواعدها ومضامينها، فالأستاذ لم يأخذ ما هبّ ودبّ باسم التراث والماضي، بل دراسته وقراءاته المتكرّرة وجهوده المضيئة والسّنين الطويلة التي قضاه في البحث والتنقيب وراء الفكر اللغوي العربي جعله يقرّ بحقيقتين:

1. لا يفسّر التراث إلّا التراث، ومن الخطأ أن نسقط على التراث مفاهيم وتصوّرات دخيلة تتجاهل خصوصيّاته النوعيّة؛¹³ وهذا ما نجده بارزا وبشكل كبير في نظريّات اليوم

2. أنّ التراث ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والابداع¹⁴، وهذا ما جعله يميز بين تراثين، قد أفاض في الحديث عنهما في قضية الأصالة والتقليد؛ فالمنابع التي أخذ منها والمشارب الفكرية التي ارتوى منها ترجع أصولها إلى تراث لغوي عربي أصيل مصدره "كتابات وحقائق علميّة أثبتتها العلماء أثناء جمعهم للمدونة اللغويّة.

دليل ذلك قوله "فالتراث الذي تعلّقت به النزعة الخليليّة هو تلك التركة اللغويّة العلميّة وعمادهم في ذلك مشافهة

الفصحاء وقيامهم بتحرّيات ميدانيّة واسعة على عكس المتأخرين الذين جرّدوا النحو من أصوله وربطوه بالمنطق الأرسطي"¹⁵ وهذا برهان على أنّه قد دقّق وتنبّه إلى تفاصيل لم ينتبه إليها لا سابقوه ولا معاصروه.

لتكون نظريّته مرآة عاكسة للفكر الخليلي فنجد دائما يردّد " وقد كان لي شرف إجراء بحوث على هذا التراث والذي نتج عنها أنّ التحليل الخليلي أعمق تحليل لغوي يخصّ العربيّة"¹⁶ لكنّه ينبّه على أنّ التراث لم يقتصر على الخليل فقط، إنّما كان هناك عباقة معاصرون له وهناك من سبقه ومن جاء بعده إلى غاية الرّضي الاستربادي¹⁷.

فجمع غفير من علماء العربيّة قد كرّسوا حياتهم وكل جهودهم في سبيل الحفاظ على اللّغة العربيّة وتقديمها في مدونة

عظيمة لاتزال قائمة لحدّ السّاعة؛ لذا فمن حقّ هذا التراث أن ينظر فيه ويشتغل عليه والسّعي الحثيث لإحيائه.

تميّزت النظرية الخليليّة بالموضوعيّة العلميّة؛ إذ اعتمدت آليّة الوصف والملاحظة والموضوعيّة المطلقة في عرض طرحها؛

وأهم ما اتّسمت به المنطق الرّياضي " وكيف لا؟ والأستاذ كان رياضيّا ذا شخصيّة علميّة تعتمد المنطق والعقل في تحليلاته ولا

ننسى أنّ الخليل كان منطقيا رياضيّا وخير دليل على ذلك معجمه العين.

هذه المزاي قد سهّلت على الأستاذ دراسته للغة وفق ما يتطلّبه العصر وساعدته على وضع مشروع لغوي ناجح. وهذا ما جعله رائدا في هذا الميدان بحق وكفاءة، فهو لا يخفي إعجابه بالصنيع الذي قدّمه لنا النّحاة فنجدّه ينسب نفسه إليهم، بنى لنفسه صرحا علميا لغويا، إذ بقي على اتّصال وثيق مع أصله وتراثه من خلال قراءة نقدية صارمة، تتحرّى الدّقة والموضوعيّة متجاوزا من خلال نظريته الإبداعية الانبهار والولع المبالغ فيه بالدراسات الغربيّة والذي لا مبرّر له. فقد جاء ليعطي للعربيّة حقها "أن يرقى بها أهلها من خلال نفخ الغبار عنها، ومحو الأوهام الشّائعة حولها فالأصل أصل، ولو مضى عليه آلاف السنين.

سعى الأستاذ إلى "بعث الجديد عبر إحياء المكتسب، فتجاوزت بذلك نظريته مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب، أو عند نشرها عن العرب؛ فلا النقل ولا النشر يؤسسان علما"¹⁸؛ لا بدّ من الأسلوب والبصمة والفكر المنهجي والعقل المبدع ضف على ذلك الدّراية الواعيّة والشاملة.

فالغاية العلمية التي وضعت لأجلها هي التأكيد على حتميّة الرجوع إلى التراث العلمي اللّغوي الأصيل والتّنبية إلى الطّفرة التي أحدثها علماء العربيّة الفصحاء؛ إذ تقترح هذه النّظرية رؤية مستقبلية استشرافية لقراءة التراث اللّغوي العربي بعامة والدّراسة العلميّة العمليّة للعربيّة خاصّة حيث تفترض أنّ الطريق السديد للنّهوض باللّغة العربيّة وإنشاء لسانيات عربيّة محضة مردّها؛ الرجوع الواعي والقراءة المتأنّية والحس النقدي في إعادة قراءة التراث وفهم كلام العرب الأوّلين، مقاصدهم وغاياتهم.

إذ تسعى لبناء عدّة مقومات ملخصها: تحليل النّظام اللّغوي آليا وإحياء مبادئه إحياءا اجتهاديا"¹⁹ فالأستاذ لم يخرج عن حدود التراث لكنّه أضاف وعدّل وفق ما يقتضيه العصر والمناهج الحديثة وهذا يؤكّد على "أصالة هذه النّظرية واعتمادها على الفكر اللّغوي دون تعصّب أو تبعيّة"²⁰ فبفضل جهوده المتتالية مع بعض اللّسانيّين استطاعت هذه النّظرية التعريف بخصائص الدّرس العربي القديم"²¹. "فالذي يرجوه الأستاذ والخليّيون التّعاون لأجل إحياء علم الخليل."²²

3.2: مفاهيم النّظرية الخليليّة الحديثة:

الاستقامة وما إليها
مفهوم الانفراد
مفهوم اللفظة والعامل

1.3.2 مفهوم الاستقامة:

الكلام عند سيبويه وُجد للإفادة والتبليغ، فوظيفته ليست مقتصرة على البنية اللفظيّة ودلالاتها فقط بل تتجاوز هذا إلى تحصيل الاستقامة في النظام التّحوي لبنية اللّغة وملاءمة قوانين الاستعمال بما يعود إلى السّياق، ومقتضى الحال وما يندرج تحته من أحوال المتخاطبين؛ ذلك أنّ اللّحن غير مقتصر على اللفظ والمعنى صوريّا فقط بل قد يمسّهما في الاستعمال. قول سيبويه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة "فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب؛ فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غدا، وهنا الاستقامة شملت القياس والاستعمال فالجملة

متكوّنه من عناصر الجملة ومرتبّة ترتيباً صحيحاً " فعل فاعل مفعول به ومعناها صحيح لتوافق أزمنة الفعل والقارئ الدالة على الزمن "أمس وغدا فظاهره مستقيم اللفظ والإعراب وأمّا المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا وسأتيك أمس. والقصد هاهنا أنّه أحيل عن ظاهره المستقيم فقد اجتمعت المتضادات في عبارة واحدة وهذا لا يجوز، وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر؛ الجملة صحيحة نحويًا لكن لا صلة لها بالواقع، وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت وكى زيداً يأتي، حكم قد وكى الاقتران بالفعل دون الاسم إذ إنّ هذا الوضع نتج عنه قبح في الكلام.

وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس؛ استحالت تظهري اجتماع قرينتي الماضي والمستقبل " سوف وأمس؛ وهما أداتان تتناقضان وتتعاقدان والأصل في سوف الاتصال بالفعل المضارع الدال على الاستقبال وظرف الزمان أمس يفيد الماضي والانهاء. والمحال الكذب هو ما لا يتقبله لا العقل ولا الواقع، فهو محال الحدوث"²³

فالكلام المستقيم حسب سيبويه يعني استقامة الكلام نحويًا وخطابيًا؛ أن يتوافق وكلام العرب إفراداً وتركيباً، وفق ما يتقبله العقل فيكون بذلك متطابقاً مع الواقع على عكس المحال الذي لا يتقبله العقل ولا يسلم به لمنافضته نواميس الطبيعة الكلامية والعقلية؛ "فالمحال أن تنقض كلامك بكلامك بما يشكّل خرقاً للمنظومة اللغوية أي الوقوع في اللحن التحوي"²⁴. إنّ المثاليين اللذين وضعهما سيبويه في تصنيفه سببه في ذلك استقامته دلاليًا إلا أنّ اللحن أصابه في بنائه. وكما هو معلوم الاستقامة ترتبط بالسلامة اللغوية التحوية من جهة وما يفرضه الوضع والاستعمال، والكذب غير الحقيقة؛ صحيح أنّ ارتباط اللفظين يشكّل لنا كلاماً مستقيماً من حيث الصيغة والبناء لكنّه غير حقيقي واقعيًا.

فقد جعل الأستاذ مفهوم الاستقامة من المفاهيم الأساسية التي قامت عليها نظريته؛ متتبّعاً في ذلك سير النحاة إذ جعلوا من الاستقامة بؤرة تحليلاتهم اللغوية، القائمة على الجانب الإفرادي والتركيب من جهة، والجانب الدلالي التداولي الذي يمسّ اللفظ والمعنى في الاستعمال ودليلنا على أهميّة هذا المبدأ واهتمام العرب به هو إفراد سيبويه باباً كاملاً له. وعلى إثر هذا التمييز، أجمل الأستاذ أصناف الكلام في قوله: "فسيبويه على إثر الخليل هو أول من ميّز بين السلامة الرجعة إلى اللفظ (المستقيم الحسن القبيح) والسلامة الخاصة بالمعنى: المستقيم/ المحال. ثم ميّز أيضاً بين السلامة التي يقتضيها القياس والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين وهذا هو الاستحسان"²⁵.

وعلى هذا يكون الكلام نظام لغوي محض وأداء فعلي لهذا النظام. فمن الواضح أنّه لم يخرج عن الإطار التمييزي الذي وضعه سيبويه على إثر رؤى شيخه إذ جعل السلامة اللغوية تتحقّق عبر منحيين "لغوي نحوي يتخذ من اللفظ والاعتبارات الخاصة به موضعاً له، ومنحى دلالي تداولي؛ أساسه المعنى والوصول إلى معنى المعنى على حدّ الجرجاني، وفق ما تقتضيه السياقات الخارجية.

وعلى خطى هذا التحديد ميّز بين دراسة اللفظ والمعنى فإذا كان التفسير يخصّ اللفظ نفسه دون المساس بالمعنى فالتحليل نحوي على سبيل المثال: العلامات المتصلة بالفعل كلفظ غير العلامات المتصلة بالاسم...، أمّا إذا فُسّر اللفظ من حيث معناه، فالهدف من التحليل هو تحليل دلالي، قولنا بدلالة الفعل على الحدث والزمن.

وقول الأستاذ فيما يخص المنطلقات التي يبدأ بها تحليل عناصر اللغة إلى مكوناتها فإنّ النّحاة الأوّلين لم ينطلقوا من فراغ ولا من باب التعسف والاعتباط، " انطلاقتهم كانت من واقع اللفظ وواقع الخطاب في الوقت نفسه، فينظرون في الكلام الطّبيعي أي في الخطابات العاديّة ما هو أقل ما يمكن أن ينطق به من الكلام المفيد؛ النّواة التي تقتزن بها سوابق ولواحق تساعد على توضيح المعنى أو تغييره، والأصل الذي تتفرع عنه فروع هي بمثابة أصل مع إضافة²⁶. وهذا ما يدخل في باب اللفظة والانفراد وثنائية الأصل والفرع فالنّظام اللّغوي كلّ أصول وفروع وفق ما يقتضيه الوضع والاستعمال. لذا نجد الأستاذ ينبّه على ضرورة التفريق بين التحليلين ويعتبر الخلط بينهما تقصيرا وخطأ في الدّراسة اللّغويّة. والجدير بالذكر أنّ النّحاة لم يتهاونوا أبداً في قضية اللفظ والمعنى ودراستهم هذا نتج عنها أنّ سلامة اللفظ لا يلزم منه سلامة المعنى والعكس.

وهذا ما سيحيلنا إلى قضية الوضع والاستعمال؛ وبذلك إنّ بؤرة التّصنيف ومركزيته أساسها مدى الملاءمة بين الوضع اللّغوي في قوانينه وقوانين الاستعمال وما يفرضه من قوانين خاصّة به؛ أي دواعي الاستعمال ومقتضياته بكلّ ما يحيط به. بالجمل أحال الأستاذ إلى تطرّق النّحاة إلى نظريّة الوضع والاستعمال من خلال حديثه عن أنّ سيبويه حين اعتنى بالبناء اللّغوي لم يفصله عن السياقات الخارجيّة التي يفرضها الواقع بل درسه في خضم الاستعمال اللّغوي الحي المتداول وهذا ما يتمّ على بعد خطابي تداولي في النّحو العربي.

2.3.2 الوضع والاستعمال عند عبد الرّحمن حاج صالح:

بداية النّظرية الخليليّة امتداد لنظرية النّحو العربي فهي نظريّة ثائيّة وبالتالي ركيزتها هي ما قاله العرب وهذا ينطبق على ثنائية الوضع والاستعمال أيضاً²⁷ "فالعرب قديما لم يركزوا على جانب واحد رغم صعوبة وصل اللغة بوضعها واستعمالها وتعقيد اللغة كأداة وإنجاز إلّا أنّهم استطاعوا الجمع بينهما"²⁸

فدراستهم لثنائية الوضع والاستعمال، واتّبعهم في هذا الأستاذ؛ كانت تتوخى التدرّج المنهجي في طرح القضايا المتعلّقة بوضعية اللغة واستعمالها؛ إذ نجد في مدخل إلى دراسة ظواهر التّخاطب واعتداد النّحاة بمكوّناتها، قد سعى إلى دراسة اللغة كبنية وخطاب من خلال نصوص سيبويه.

"فكان سيبويه وشيخه أوّل من أثبتوا الفرق بين الكلام المستعمل بالفعل وأصل الوضع"²⁹ ما يعيننا هنا المعنى الذي أورده القدامى ودرسه الأستاذ؛ ليخرج لنا "بأنّ اللغة مجرد أداة وضعت للانتفاع بها- كيان مجرد-، والاستعمال هو الذي يحدّد ماهيّتها حسب الظروف والأحوال"³⁰

وسبب الوضع " يكمن في حاجة الفرد إلى التّواصل والتّفاهم، والاستعمال هو الذي يضبط هذه المهمة فاستغلال هذه النّظرية حاصل بالفعل³¹ قولنا " ضرب الوالد ابنه، ليست كقول: ضَرَبَ اللهُ مثلاً، وإن اتّفقت في نظامها اللّغوي (فعل - فاعل - مفعول به)؛ إلّا أنّ المعنى قد حدّده الاستعمال.

وفي قوله تعالى في سورة الدّخان «دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»؛ دليل على أنّه لا يصحّ دراسة اللغة بمنأى عن

الخطاب والسّياق الذي يوطّره فالمقام هنا ليس مقام مدح إنّما مقام توبيخ، استهزاء، فالأستاذ قدّم لنا نماذج عدّة تصبّ في

القالب الاستعمالي للغة، تؤكد على أنّ النّحاة لم يتغافلوا عن الدور الذي يشغله الكلام مع تبيان دور المتخاطبين وكيفية حصول التفاهم والمقبولية بينهما؛ وهذا هو الاستعمال في أسمى معانيه.

إذ إنّ نظرية الوضع والاستعمال عنده، قد سلكت مسلكاً تداولياً في عرض المرتكزات الخطابية. اعتمد في كتابه على شرح وتبيان الأسس التي قامت عليها النظرية العربية فيما يخصّ الثنائية فأعاد قراءة مفاهيم القدامى وعقّب عليها، قوله: "هو الكلام الجاري بالفعل على الألسنة التي تعرض له العوارض لا على الإطلاق بل في إطار النظرية اللغوية العربية، والتي تتّصف بالتمييز بين اللغة وكيفية استعمالها"³².

أي اللغة من حيث الأصل الذي وضعت عليه، ومن حيث هي أداء فعلي، والذي يتحكّم فيها عدّة عوامل خارجة عنها. فيقرّر بأنّ العرب لم تضع قواعد اللغة من فراغ إنّما أقامت ذلك من خلال مقاييس علمية، جعلت اللغة كيانه قائماً بذاته وأنّ هذا النظام لو لم يخرج لحيز الاستعمال لبقى مقيداً وغامضاً وبالتالي لم يحقق غايته "التخاطب والإفادة".

فلمحه يقرّر بالصنيع الكبير الذي قدّمه النّحاة في دراستهم قوله: "فالفضل الكبير الذي امتاز به النّحاة هو في تناولهم للكلام لا كنص مجرد بل بكل ما يحيط به عند حدوثه،" قبل وبعد حدوثه وكل ماله صلة بالكلام في الاستعمال.³³ هذا ما يؤكد لنا أهمية الأداء الفعلي الحقيقي في تحديد البنى النحوية ومعانيها المقصودة.

ففي مفهومه للاستقامة ميّز بين السلامة الرجعة إلى اللفظ والمعنى وبين السلامة التي يقتضيها القياس والتي يفرضها الاستعمال، وهذا التحليل فتح له الباب في دراسة اللغة من حيث هي إنجاز كلامي حي؛ إذ أحال إلى أنّ سيّويه قد تجاوز دراسة اللغة في بوتقة الشكل وعلاقتها باللفظ والمعنى ليخرجها إلى حيز الاستعمال.

وقد فضّل الأستاذ استعمال لفظ "الاستعمال" بدل "البراغما تيك" وفي هذا دليل على أصالة مصطلحاته، فيقول: "ميّز النّحاة بين كلّ ما هو راجع إلى الوضع؛ الدلالة الوضعية التي تجعل من اللفظ المقياس الوحيد الذي تبني عليه دلالة الجملة، وبين ما هو راجع إلى الاستعمال أي إلى التأديّة للمعاني القصديّة بالفعل فنستحضر قرائن غير لفظيّة تستلزم القصديّة والمقبوليّة وفهم الدلالة السياقيّة التي تعني بدورها بالدلالات غير الوضعية التي تخالف الوضعية في قوانينها وتتجاوزها إلى معاني يقتضيها الخطاب والتي أسهب الأستاذ الحديث فيها من منظور القدامى.³⁴

واسترسل في الحديث ففصّل في الثنائية: "فبنظرهم إلى الوضع معزولاً، تمكّنوا من إيجاد الجامع بين أفراد الجنس الواحد بالاعتماد لا على صفاتها المميّزة فقط بل بالنظر في زنتها وهيئتها"³⁵ وهنا اختلف والنّحاة عن لسانيات الغرب التي قصرت معرفة جنس اللفظ من خلال صفاته المميّزة.

والوضع في اصطلاحهم دراسة النظام اللغوي في درجة الصّفر؛ من حيث دلالاته الأولى المتفق عليها. فيجعل "الوضع هو النظام الذي أساسه مجموع الأدلّة بمعانيها ومجموعة أبنية اللغة بمستوياتها، لا بمجرد التّباين المبني على الصّفات الدّاتيّة بينها، أمّا الاستعمال فمراعاة الجماعة النّاطقة بأصول الكلام وقوانينه.

فالعرب ربطوا بين الدّراستين؛ قوله "ومن أهم ما أثبتته النّحاة تمييزهم بين الكلام المستعمل بالفعل المسموع من النّاطقين وبين الأصل الموضوع؛"³⁶ ومن المغالطة أن نفصل بينهما رغم تباين قوانينهما.

ومن هنا نضع الضّبط الاصطلاحي للثنائية، "الوضع مجموع أدلّة منسجمة من الدّوال والمدلولات شرط الانسجام والتناسب بين العناصر اللغوية والعلاقات التي تربطها... أمّا الاستعمال فهو كيفية إجراء النّاطقين لهذا الوضع في واقع الخطاب"³⁷

والأستاذ ينبّه على عدم تواجد الوضع في كل استعمال رغم حتمية العلاقة بينهما لغاية إبراز النظام اللغوي، فأشار أولاً إلى أن الوضع لا يتحقق وجوده ولا يبرز للعيان إلا من خلال الإنجاز الفعلي الحي، وفي هذا تأكيد على ارتباطية الجانب الاستعمالي للغة وكيانها الوضعي وفي الآن نفسه قد أشار إلى أن ليس كل الوضع قابل للاستعمال. فقد يكون الاستعمال ضمن النظام اللغوي كما قد يخالفه لذا نجد في تعريفات عدة له أنه إنجاز فعلي للغة إلا أنه يقع خارجها؛ فليس كل الموجود في الوضع يصح تطبيقه لوجود عناصر غير لغوية نألفها في الاستعمال. مبرّره: "فالاستعمال له قوانين غير التي يخضع لها القياس؛ وهي أساس التبليغ والإفادة، فالاستعمال لديه قوانين تعارض بقاء العنصر اللغوي على أصله فتغيّره لفظاً أو معنى³⁸ فلا يجب الخلط بين الوضعي والمستعمل.

3. الخاتمة:

بعد مساءلة معرفية وبحث عميق في اللغة تبين لنا أنّ النّحاة قد ميّزوا بين اللغة كوضع واستعمال، فقد تنبّهوا إلى أنّ المعنى زبقي فضفاض؛ ولا تقتصر دلالاته على ظاهر اللفظ فقط بلا بدّ من البحث عمّا خلف هذا اللفظ وما يحيط به من جوانب خارجة عنه مصاحبة للكلام قراءة ابستمائية في الثنائيات بيّنت لنا استطاعة الأستاذ في التأسيس لتوجّه تداولي عربي فلم يقدم لنا ما قدّم من فراغ إنّما كانت دراسته إبستمولوجية بحثت في أصل العلم والمعرفة عند النّحاة معتمداً على مبدأ التراكم في المحافظة على الأصل وجعله موائماً للعصر دون المساس بخصوصياته النوعية. وتركيزنا على مبدأ الاستقامة إثبات على التفاتة العرب لمبادئ التداولية منذ آلافاً السنين.

1. النّحاة قديماً أدركوا أن اللغة ليست مجرد كلمات أو تراكيب ثابتة تُستخدم بمعزل عن سياقها. فقد ميّزوا بين اللغة من حيث كونها نظاماً وضعياً (أي أن الكلمات لها معاني مقرّرة في أصل اللغة) وبين استعمالها الذي يتأثر بالسياق والظروف المصاحبة للكلام. وهذا التمييز يُبرز الجانب الديناميكي للغة، حيث تتغير معاني الألفاظ وفقاً للاستعمالات المختلفة.
2. وصف القدامى وكذا عبد الرحمن الحاج صالح المعنى بأنه "زبقي" يشير إلى صعوبة تحديده بدقة بسبب تداخل السياقات والأبعاد التي تؤثر فيه. فالمعنى لا يعتمد فقط على ظاهر اللفظ (الدلالة الصريحة)، بل أيضاً على ما يحيط به من عوامل مثل النبرة، والموقف، والنية، وحتى الخلفية الثقافية للمستخدمين.
3. مصطلح "الأبستمولوجيا" يشير إلى دراسة أصل المعرفة وكيفية تكوينها. ما ذكرته يبرز دور الأستاذ الذي يعتمد في دراسته للغة على أسس معرفية متراكمة عبر التاريخ، حيث يبحث عن جذور القواعد اللغوية والنحوية ويحاول تحديثها بما يتماشى مع تطورات العصر دون أن يخلّ بجوهرها.
4. الوضع والاستعمال في النظرية الخليلية الحديثة يعكسان رؤية شمولية للغة، تمتد جذورها إلى الفكر النحوي العربي القديم، مع التركيز على البعد الوظيفي والعملي للغة.

5. يمكننا القول إن الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن سار على نهجه لم يقتصر على تحليل اللغة كوضع محكم وقواعد صارمة، بل تنبّهوا إلى دور الاستعمال في تجديد المعاني وإعادة تشكيلها وفق السياقات المختلفة وهذا ما أكّده ووضّحه الحاج صالح.

5. قائمة المصادر والمراجع:

- 1 بشير إبرير، أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديثة، مجلّة العلوم ال إنسانية، بسكرة، ع7، 2005.
- 2 سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى (من أجل وعي جديد بالتراث)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1992.
- 3 شفيقة علوي، العامل بين النظرية الخليلية الحديثة والربط العملي لنوع تشومسكي، حوليات التراث، مستغانم، ع7، 2007.
- 4 صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، بوزريعة، الجزائر، 2003.
- 5 عبد الرحمن حاج صالح، البنى التحويلية العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2016، ص: 04.
- 6 عبد الرحمن حاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الترجمة، الجزائر، 2012.
- 7 عبد الرحمن حاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، مجلّة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع10، 1996.
- 8 عبد الرحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1-2، موفم للنشر، الجزائر، 2012.
- 9 عبد الرحمن حاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، 2012.
- 10 عبد القادر التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، الزوية، الجزائر، 2008.
- 11 عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب ج1، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، دار الجبل، بيروت، 1991.
- 12 قادة عقاق، هاجس التأصيل التقدي عند عبد الملك مرتاض بين وعي التراث وطموح الحداثة، مجلّة التعليميّة، ع14، مج1، 2004.
- 13 محمد صاري، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، ع10، 2005.
- 14 معالي هاشم أبو المعالي، الاتجاه التوافقي بين لسانيات التراث واللسانيات المعاصرة - عبد الرحمن حاج صالح نموذجاً -، أطروحة مقدّمة لنيل الدكتوراة، قسم اللغة العربية، جامعة بغداد، 2014.
- 15 نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014.

6. قائمة الإحالات:

1. سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى (من أجل وعي جديد بالتراث)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1992. ص125 وما بعدها.
2. ينظر: نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014، ص: 51.
3. ينظر: قادة عقاق، هاجس التأصيل التقدي لدى عبد الملك مرتاض بين وعي التراث وطموح الحداثة، مجلّة التعليميّة سلطنة عمان، ع14، مج1، أبريل 2004، ص: 276.
4. ينظر: نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، (مرجع سابق)، ص: 05.
5. عبد الرحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج1، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص: 209.
6. نفسه، ص: 207.
7. ينظر، نفسه ص: 20.
8. محمد خان، إسهامات حاج صالح في ترقية المصطلح العربي، مجلّة الموقف الأدبي، سوريا، ع486، 2011، ص: 116.
9. حاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة "مفاهيمها الأساسية"، مركز البحث العلمي والتقني الجزائر، ع4، 2007، ص: 16-17.
10. علي بلول، العامل عند الدكتور عبد الرحمن حاج صالح، نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، (ماجستير)، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، الجزائر، 2011/2012، ص: 82.
11. محمد صاري، محاضرة المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، ص: 09.
12. عبد الرحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج2، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص: 81.
13. ينظر: محمد صاري، محاضرة المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة (مرجع سابق)، ص: 10.
14. نفسه، الصفحة نفسها.
15. نفسه، الصفحة نفسها.
16. ينظر: حاج صالح، أنماط الصياغة اللغوية الحاسوبية والنظرية الخليلية الحديثة، مجلّة المجمع الجزائري، ع6، 2007، ص: 21.

17. ينظر: عبد الزحمان حاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع10، 1996، ص: 85-86.
18. محمد صاري، مرجع سابق، ص: 16.
19. ينظر شفيقة علوي، العامل بين النظرية الخليلية والربط العاملي لنعم تشومسكي، حوليات التراث، مستغانم، ع4، ص: 3.
20. ينظر: عبد القادر التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، الجزائر، 2008، ص80.
21. ينظر معالي هاشم، الاتجاه التوافقي بين لسانيات التراث واللسانيات المعاصرة حاج صالح أمودجا، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة بغداد، 2014، ص: 107.
22. عبد الزحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج2، ص79. مرجع سابق.
23. ينظر: سبيوه، الكتاب ج1، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، دار الجبل، بيروت، 1991، ص: 25-26.
24. فيصل مفتن كاظم، التداولية في النحو العربي، مجلة أبحاث ميسان، العراق، ط1، 2006، ص: 45.
25. ينظر: عبد الزحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج1، ص: 218.
26. ينظر، المرجع نفسه، ص: 252.
27. ينظر بشير إبرير، أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية، بسكرة، ع7، 2007، ص: 2.
28. ينظر: حاج صالح، البنى النحوية العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 2016، ص: 04.
29. ينظر: حاج صالح، الجزائر، الخطاب والتخاطب في ثنائية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012، ص: 252، 263.
30. ينظر: نفسه، ص: 43.
31. ينظر: حاج صالح، الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة في التعليم ما قبل الجامعي، ص: 175، ينظر: نهاد الموسى، العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية.
32. ينظر: الخطاب والتخاطب، ص 8. (مرجع سابق)
33. نفسه، ص: 10.
34. ينظر: المرجع نفسه، ص 43-44-45-46-47.
35. ينظر: المرجع نفسه، ص: 37.
36. ينظر المرجع نفسه، ص: 252.
37. ينظر: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص: 195.
38. ينظر الخطاب والتخاطب ص 74